جناحاي إلى العنقاء : معراج النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورؤيا يوحنا

فكتور الكك *

على ألحان التّرانيم الميلادية صحوت على الحياة! وعليها أَغْفَيْتُ، عارجاً إلى عوالم مسحورة، في كلّ ليلة من ليالي تاسوعاء ميلاد المسيح. وبينما كانت تهدهد غفوتي اليقظةُ، كانت أطياف المجوس تجدّ في إسرائها نافذة من أقطار خيالي إلى النّجم الهادي إلى الطفل العجيب. ولكم استنزلتها إلى ديارنا وقدس أقداس كنيستنا، متنوَّرا سجودها للسيّد، فأحسبها تجوس بيننا، تحمل المرّ واللبان من بلاد فارس القصيّة المسحورة! ولم يكن ليوقظني، من إسرائي العارج الهابط، إلا كاهن المذبح وأبيله يجأر بالنقرة الأخيرة من الترنيمة: هلّل، هلّل، هللونو!

عندئذ، كنت أدرك أن: "ليس في الدّار غيره ديّار"!

ولكم هبَبْتُ، قبيل ذلك أو بعيده، من مكاني إلى "القُرّاية"، أتلو صفحات من "السنكسار" عن حياة القدّيسين الصالحين، ولم أكن تجاوزت الثامنة. ولم أكن لأتهيب مواجهة جمهور الكنيسة، فعالمي، أيامئذ، كان موزَّعا بينهم وبين عالم المعارج وبساط الهجرة إلى المجهول! وكنت في هنيهات بعض المعارج أو الهوابط أتصور، بيقين، أن الطفل يسوع، وأن عجيباً، يصغي إلى تلاوتي... ولكم ساءلته في سري: لِمَ أتَى المجوس إليك من دون الناس؟ ولم قدموا من بلاد فارس لا من سائر البلدان؟ ورغم الإلفة بيننا، بقي سؤالي من دون جواب، إلى أن شببتُ عن الطوق، وكانت هجرتي إلى إيران فتحاً ثقافياً مبيناً... وبعد سنوات من التنقيب والبحث كثيرة، صحا عقلي وإنجاب حدْسي عن غمامة اللّغز: أليس المجوس رمزاً لوحدانية عقيدة زراد شت تُنبئ بقدوم المسيح ، وتقول بالرسالات القادمة؟.

إلا أن هجرتي بالجسد والروح إلى إيران سبقتها هجرة بالروح خرجت بي من حمى الطفولة إلى معترك القدر في خضم الحياة. كان ذلك قبل أن أتعالى من حضيض الإيمان المبرمج إلى قمة التوحد بين الأديان في وجداني المطمئن القلق في آن، الناهد إلى جبل القاف، بحثاً عن العنقاء! فبعد المنزل الأول من "منازل السائرين" عبر "عالم السير والسلوك" ، قادني الشوق بالحدس من عالم تاسوعاء الميلاد بالقرية إلى عوالم بيروت المدينة حيث انصرفت إلى التحصيل وارتياد مجاهل المعرفة. وخلافاً لرفاقي الذين تبعثرت نفوسهم في تكثر أشياء المدينة، صمدت في وحدانية شرنقة ذاتي وفيْلجتها أنفذ منها إلى ما أريد من الأشياء والحاجات، فلم تبهرني أضواء المدينة، ولم يستهوني من أصواتها سوى الأصوات الخافتة الخفرة. تلك كانت، وأيم الحق، أصوات أمواج اليمّ ترتفع

من ميناء بيروت إلى شرفات "الأشرفية"، خلال سكون الليل وسجوه أو صدى النواقيس في غلس الدّجى، أو نداء الأذان يشق سكينة الفجر. أما في وضح النهار، ولا سيما في أيام العطل، فكانت الجذبة إلى واجهات المكتبات. وذات يوم، طرأت جذبة فريدة إلى واجهة مكتبة بجوار سينما كابيتول في ساحة رياض الصلح، اليوم. أبصرت كتاباً مسجى بنبض، تزينه منمنمة فارسية، خط تحتها وتحت "ظلال الوحي" ثلاث كلمات: رباعيات عمر الخيام!

هكذا عبرت إلى المنزل الثاني من "منازل السائرين" في هجرتي الرّوحية إلى موطن المجوس القريب البعيد. ولم يؤلمني أن أنفقت على شراء الرباعيات رصيدي الأسبوعي كاملاً، وإن يكن ذلك ألجأني للعودة إلى المدرسة مشياً على قدميّ! في الطريق، قلّبت صفحات الكتاب بين يديّ كما يقلّب الصائغ الدرّر المنثورة. وقد ارتحت إلى تحويل وديع البستاني رباعيات الخيام سباعيّات في بيان سهل رقراق، فطربت لفاتحته يعلن الرياضي الفلكي الحائر إيمانه بربّه وتوحيده إياه:

ربّ رحماك إن أردت الحسابا

إنما قلت ما حسبتُ صوابا

أفألقى على يديك العقابا؟

بين من صوّروا الوجود سرابا

أنا أجلوك في الكؤوس حبابا

أنا شيخ التوحيد بين الندامى

لا أثنّي إن عدّدوا الأربابا!!

ورغم مضمون الربّاعيات - السباعيات الأخرى المشعر بحيرة الخيام وشكّه في بلوغ الحقيقة، فإنه أعادني إلى حكاية المجوس مواطني عمر الخيام وسر اهتدائهم بنجم حقيقة كبرى قصوى قائمة وراء عالمي الصغير. شاركت الخيام عطشه إلى كشف الستر عن المعمّى الأكبر، إلا أن حيرته لم تشوش إبرة بوصلتي المتجهة باستمرار نحو القطب الأعلى. وما أن عرفت أن المجوس شاركوا زرادشت نبيّ إيران العتيقة، دينه مقدّسين النور الفياض من أهورامزدا(1)، حتى أدركت بحدسي أن حقيقة الأديان واحدة وأن السابق يهيئ للاحق. وكنت في تلك السنة المدرسية في صف البريفه قد شرعت بمطالعة القرآن...

يومئذ، لم أكن قد إكتشفت ابن عربي ولا حافظاً الشيرازي، لسان الغيب، الذي يقول بالفارسية:

همه كس طالب يارند جه هشيار وجه مست همه جا خانه ى عشق است

جه مسجد جه كنشت(2)

ما أترجمه بالعربيّة شعراً سويّاً هكذا:

كلّ إنس صابئ للخلّ صارا صاحياً أو ذاهلاً مثل السكارى

كل ناحٍ صار للحبّ مزارا: مسجد المسلم أو دير النصارى!

إستمرت حكايات المجوس وعقائد الزرادشتية وأساطيرها تشغلني طوال ذلك العام، إلى جانب تأملاتي في الإنجيل والقرآن. إلا أن العام التالي 52 - 53 فتح لي أفقاً جديداً على الفلسفة الهندية أو، بعبارة أصح، على الديانات في الهند. وهناك كدت أضيع في متاهاتها وشعابها، في حين كانت هذه المعاناة كلها غائبة عن عقول رفاقي في المدرسة الداخلية، لا يكادون يتجاوزون في قراءاتهم كتبهم المدرسية وبعض المجلات. وجدت بعض الكتب حول ديانات الهند على رفوف مكتبة المدرسة، وكانت ما تزال جديدة لم تقلّبْ صفحاتِ ها أصابعُ فضولي مثلي. فأخذت أقطع ملازمها الموصولة الصفحات بشغف وأقرأ منها أسطراً قبل أن أعود إلى الصفحة الأولى لقراءة منهجية. غير أن الكشف الروحي الذي تحصل لي منها كان أهم من كل ما قرأت، إذ تبين لي أن ثمة قوة فِيّ وفيمن يسلكون الطريق الذي سلكت تتجاوز قوة العقل إلى اللا محدود... وأدركت بعين القلب أن تنمية تلك القوة من شأنها أن توصلني إلى وكر العنقاء! ولما كانت مطالعاتي تلك باللغة الفرنسية فقد حاولت، منذ تلك السن المبكرة، أن أجد نظيرها في العربية، يقيناً مني - رغم إتقاني الفرنسية كمثل لغتي الأم- أن الإنسان يتسامى، مفكراً أو حادساً، عبر لغته الأم التي لا تنفصم عن عقله أو قلبه.

أفضى بي ذلك التوجّه غير المألوف إلى ارتياد مضامين غير مألوفة في دراسة الشعر العربي في صف البكالوريا الأولى، خلال السنة اللاحقة. فإلى جانب طربي لترداد قصائد بشار بن برد وأبي نواس والبحتري وأبي تمام وغزلياتهم- كنت أشغف بتلك التي تناولوا فيها شؤوناً فكرية أو دينية أو روحية، على ندرتها، بخلاف رفقائي. فمن بشار كان يستوقفني، متأملاً، قوله، مفضلاً إبليس على آدم، والنار على الطين:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجَّار

النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار!

فكان ذلك يعيدني إلى معلوماتي البسيطة حول الزرادشتية والمشوهة أحياناً في كتابات من تناولوه وتناولوا دينه باللغة العربية.

كذلك، رغم شغفي بخمريات أبي نواس التي تستولد المعاني وتستثير المشاعر من عوالم المجاهل، فإن ما كان يستهويني في قصصه الخمري هو "قصة الأمم" ترويها ابنة الكرمة محتبية تتحلق حولها الأقوام، أو إثارته موضوع "طبائع الإنسان الأربعة" وأن الثلج مستودع الأضداد، فهو "بارد حار" في آن. وإنطلاقاً من ذلك، كنت أدلف إلى تنور الحقيقة

في هـذا العـالم وأبعـد منـه، وكنـت أسـعى إلى هتـك أسـرار تحملني إلى مـوطن العنقـاء المسـحور. وعلى ضوء ذلـك، كنت ألجأ باسـتمرار إلى تأويل ما أقرأ وما أسمع، وما أزال شغفاً بالتأويل، إذ لولاه لما كان من معنى لأي نص، وبدون الأنا بين الموضوع والمحمول لا مسـلك نحو الحقيقـة. لـذلك، لم تكن مبالغة الشـعراء، أحياناً، تصدمني. فإذا قرع سـمعي قول شاعر "الحكمة" خلال جيل والدي(مراد أبي نادر):

قل لوكر النسور قدست وكرا كل يوم تهدي إلى الأفق نسرا

عبقري الجناح أقرب مر مـا ـه إلى السماكين إن أراد مقرا.

كنـت أرى في قـوله حـافزاً لتحليـق روحي في فضـاء المغـامرة الروحيـة. ألم يقل السيد: مملكتي ليست من هـذا العالم؟ ألم يـدعنا للعودة إلى الطفولـة، أي إلى الفطرة التي لا يعقلها العقل؟

أمـا الشـاعر الـذي رفع جنـاحي في اتجـاه العنقـاء فكان المتنبي، خلافاً لما قـد يتبادر إلى الذهن. بطبيعة الحال، كنت ورفقائي نطرب لمدائحه في سيف الدولة ولبلاغة أسلوبه تقرع أسـماعنا كمثل قعقعة السـلاح وملاحم البطولات. إلا أني يممت في دراستي له شطر كتب غير مـد رسـية تعرفـت من خلالهـا إلى وجه آخر منه هـو الروح الـذي أدّى به إلى ادعاء النبوة. وهذا الروح النبوي تجلى في بعض قصائده حيث يقول:

يا أيها الملك المصفّى جوهـراً من ذات ذي الملكوت أسمى من سما

نـور تظاهـر فيك لاهوتيه فتكاد تعلـم علم مـا لن يعلما

أنا مبصر وأظن أني نائــم من كان يحلم بالإله فأحلمـا..

كبـر العيان عليّ حتّى إنَّهُ صار اليقين من العيان توهما(3)

كـان المتنبي معبراً لروحي القلقـة المتجهـة بوصـلتها نحو الغيب، فلما عبرت إلى صف الفلسـفة، عـادت بي حيرة أبي العلاء وشكه إلى رباعيـات الخيـام أسـتذكرها من جديد. ثم شطحـت بي فلسـفة ابـن سـينا وقصـيدته العينيـة إلى مجاهـل الغيـب فيمـا وراء الطبيعة. فاسـتخفتني ورقـاؤه المتعززة المتمنعـة إلى بسـط جنـاحيّ فـترة نحـو الحقيقـة الكبرى. ثم اعترتني حيرة شديدة مع الغزالي، إلى أن شفى نفسي وأبرأ سقمها خروجه منها في "المنقذ من الضـلال"، "بنور قـذفه الله في الصدر"، فأدركت، قبل أن أتعرف إلى حافظ الشيرازي وكأسه الجمشيدية، أن القلب منا هو مبدأ الحقيقة ومعادها، وأن فيّ انطوى العالم الأكبر! ثم كـان طيراني إلى وادي الشوق مع ابن الفـارض وابن عربي، فكنت أشـعر أني أقترب من المحجة البيضاء، خفقة من جانحيّ بعد خفقة.

إلا أن تتويج تلك المرحلة الثانوية، مدرسياً، وأكثر من ذلك، واقعياً، تجسد في حدث آخر العام المدرسي. فقد حزت جائزة الشرف لتفوقي في دراسة معظم المواد ومسلكي الصالح، وكانت من نصـيبي جائزة الفلسـفة العربيـة من يدي رئيس مدرسة الحكمـة الأب خليل أبي

نـادر الـذي غـدا، فيما بعـد، رئيس أساقفـة بيروت للطائفـة المارونيـة. وأهـداها من مكتبته الخوري لاون مقصود، بتاريخ الأول من حزيران/ يونيو 1955م. أما الحدث فيها فهو أنها كانت "الشاهنامه" للفردوسي، شاعر الملحمة الفارسية الأكبر!

أعادتني الشاهنامه بأساطيرها إلى عهد الطفولة وسحر المجوس، ثم ما لبثت أن حملتني على أجنحـة حماسـتها الشـعرية إلى ارتيـاد عـالم المجهـول الـذي كـان، باستمرار. محجة الصـبوة إليه. نقلتني إلى ماضـي إيران البطولي الأسطوري، لكن ذلك الماضي انطوى في ثناياه على رسالة حكيم إيران العتيقـة أي زرادشت. استهوتني رسالته وناره المقدسة التي إنحدرت من السماء فأودعها مجمر معبده لتبقى مشبوبة إلى الأبد وتطرد بنورها ظلمات أهريمن الشرير.

ثبتت "الشاهنـامه" مساري إلى العنقاء، فأوحت إليّ أن رؤيا المجوس واهتداءاتهم بالنجم ومعـالم مسيرتي الطويلـة المتماسكة العرى كـانت بمثابـة "منازل السائرين" ممن شـغلوا بصـقل مرآة القلب من علائق الدنيا، وصبروا على اجتياز الأودية السبعة، كي تتجلى فيها صورة العنقـاء! كمـا أنهـا -بمـا أثـارته في خيـالي من شوق إلى عالم ألف ليلـة وليلـة، بلاد فـارس السـحرية- كـانت حـافزي لتسـجيل نفسـي في طليعـة الراغـبين في دراسـة اللغة الفارسية، عام 1956م، ويقيني حـدس مبهم بأن سبيلي إلى العنقاء بدأت معالمه تبين. ولقد برّزت في دراستها بحيث تابعت ذلك بعد تخرجي وحزت منحة إلى جامعة طهران، فكان سفري على جناحي طائر الـ"هُما" الأسطوري الذي تسمت به طائرات الأسطول الجوي الإيراني.

وأخيراً تحقق حلمي فـوق أرض الواقـع. لكنه واقـع من نـوع خـاص، لا- حـدود فيه بين الحقيقـة والخيـال، يتقلب بين الظـاهر والبـاطن بيسـر. في ديـار المجوس هناك، تماهى في وجـداني تراثي المسـيحي وتراث الإسـلام في تجـل جديـد نـوراني احتملـه قبس مـن نـار زرادشت إلى أنوار السهروردي الشعشعانية، وشعلة اللمع عند سنائي، وحديث الطيور في مسيرة العطار، وصولاً إلى لهيب مولانا بوجده المشبوب أبداً، واستغراق حافظ الشيرازي في كأس جمشيد، واطمئنان عبد الرحمن الجامي إلى رضاء الخالق اللامحدود...

في ذلـك الجـو الروحـاني العـابق بمر المجوس وبخورهم اسـتقطب كيـاني من جديد -في مـدار الأفلاك التي اجتزتهـا- رؤيـا يوحنا ومعراج محمـد، وكانا شـغلا عقلي وقلبي خلال دراستي الجامعيـة الأولى في لبنان، فعـدت إليهما من جديـد، مسـتعيناً بالأنوار الشعشعانية الـتي لـم تسـتطع منـائر النفـط الإيراني حجبهـا عني. فـبين تـواتر الفنـاء والبقاء، والمحو والصـحو، والإحتراق بالشوق، والإنخطاف بالقرب، غدت معارفي السابقة هزيلة، إلا أنها تحولت تجارب روحانية نابضة، وأحوالاً صوفية مكوكبة، وأدركت معنى الحديث المكرر على لسان أهل الصفة: حسنات الأبرار سيئات المقربين(4)!

فتـح لي هـذا الكشف الجديـد معمّى رؤيـا يوحنـا، فأدركت معنى المعارج والمهابط لديه، يتنوّر عبرهـا أرواح الماضـين من قديسـي الأرض وأرواح العلويين من الملائكة عارجة

هابطة بين الأرض والسماء، ولا- غرو، فالطهارة المثلى تسقط الحدود، كما القرب من عنقاء الحقيقة القصوى تسقط الحجب(5)!

من ذلك المقام الروحاني، تمثل لي، حدساً، حضور الغابرين المختارين وأعصرهم الماضية، والتمع في ذهني قول المتنبي العجيب، وإن على صعيد آخر:

ولقيت كلّ الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا(6)

هذه الرؤيا اليوحناوية، وجدت رجع صداها وتصوراً شبيهاً بها في التماعات حافظ الشيرازي الغيبية والمقتضبة كالعادة، في غزليته الصوفية الشهيرة ذات المطلع الآتي:

دوش ديدم كه ملايك در ميخانه زدند... كل آدم بسرشتند وبه بيمانه زدند(7)

وقد ترجمتُ أبياتها شعراً عربياً سوياً بما يلي:

ملائكُ حلَّت ليلَ أمسٍ بحاننا جَبلنَ عجين الآدميّ بجَامنا

هجرن سماوات، عفاف تخلّق وكدَّيْنَ مثلي يحتسين شرابنا

وناءت بحمْلٍ مِ الأمانةِ قبة فكان نصيبي واصطفيت لدارنا،

غدوت، أنا المجنون، قرعة فألهم يريني حباب الراح سراً بدا لنا

ألا فاعذر القوم الذين تفرّقوا: أنافوا على السبعين ثنتين بالقنا،

أقاموا حروباً بينهم لعقيدة وضلوا طريق الحقّ سراً ومعلنا..

فشكراً لربي وطَّد الصلح بيننا فبالرقص والطاسات قامت لحالنا

جماعة صوف في دُويرات غربة تنادت لشكر بالكؤوس وبَالْغِنَا!

هي النار ليست ما يضاحك شمعنا بيادرنا التاعت فراشاً بنارنا!

ويا حافظاً، مَن مثلُ شخصك رافعٌ نقابَ محيَّا الفكر يَطرق بابنا؟

فشعرك أقلام تمشط عقرباً من القول يغدو طيعاً لبياننا...(8)

ذلك الكشف المبين النابع من تراث ابن عربي وابن الفارض وذي النون المصري، والغائرة جذوره في "حديقة الحقيقة" لسنائي، وبستان رابعة المزهر حباً، وفضاء الجنيد البغدادي...تمثل تفاصيل مذهلة ودقائق شتى في آثار العطار ومولانا الرومي وسعدي وحافظ وسواهم. وبمجمل هذا التراث الغني المغرق في آرِيّتِهِ التفصيلية فهمت رموز معراج محمد الذي أُريَ من آيات ربه ما لم تره عين، وسمع من خلالها ما لم تسمع به أذن، وأدرك ما لم يخطر ببال بشر! المعراج كان هجرة رمزية قابلت هجرة الرسول الواقعية من مكة إلى المدينة وهجرة المؤمنين برسالته من مهد الإسلام المهدد يومئذ إلى

حمى المسيحيين في الحبشة يستظهرون بهم. ولئن كانت هذه الوشيجة درساً بليغاً لنا في أيامنا هذه التي لم ندرك خلالها مغزاها، رغم انقضاء أربعة عشر قرناً- فإننا لم ندرك باطن الأمر في معنى الإسراء المحمدي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى!

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)(9). والرؤية هنا في قولٍ هي محمولة على رؤية الفؤاد، كما فُصِّل في حديث مسلم عن أبي ذر الغفاري. ورؤية الفؤاد أليست هي رؤيا؟ ألم يردد الذاهل عن ذاته:

رأيت ربي بعين قلبي فقال: مَن أنت؟ قلت: أنت!(10)

ومن الآيات التي "رآها" لقاؤه الروحي بالأنبياء في ديار المسجد الأقصى، وجميع ذلك رؤية بالفؤاد. يؤكد ذلك الإسراء أي السير في الظلام والانتقال خارج مسرح النور، فتحول الرؤية عندئذ رؤيا، كما يؤكده التأكيد بالظرف للفعل من غير ما ضرورة إلا ضرورة المعنى(أسرى - ليلاً).

وكما أن الملاك جبريل عرج بالرسول من سماء إلى أخرى حتى السابعة، والتقى الأنبياء، وآخرهم في السابعة إبراهيم أبو الأنبياء، قبل أن ينتهي به المطاف إلى سدرة المنتهى التي لا يمكن للملائكة أن يتجاوزوها - هكذا، "أرسل يسوع المسيح ملاكه بهبة من الله ليكشف لعباده ما لا- بد من حدوثه عاجلاً... ليخبر به عبده يوحنا، فشهد بكلمة الله وشهادة يسوع المسيح في كل ما رآه" وهكذا اختطفه الروح في يوم الرب وسمع خلفه صوتاً قوياً كصوت البوق يقول..."(11). ثم تتوالى مشاهد رؤيا يوحنا فيرى عجائب كلها سبع في سبع -وهو الرقم المقدس في تراث الساميين وسواهم- وهي تطابق عدد الكنائس السبع التي خاطبها القديس يوحنا مقوياً عزمها وصمودها بما رآه من آيات الله، كما من بعده النبي محمد... والذي يسترعي الانتباه في هذه الرؤيا أنها سلسلة من الرؤى تتدرج في مشاهدها كتدرج "منازل السائرين" وتواتر "أودية السلوك السبعة" و"المقامات السبعة" و"الأحوال السبع". وأهم من ذلك أنه رأى شؤوناً مضت وشؤوناً قائمة وشؤوناً ستحدث، وهكذا ذاب الماضي والحاضر والمستقبل في اللازمان كما أن الرؤى توالدت في أمكنة مختلفة متكثرة استُحْضِرَتْ ليوحنا في مكان واحد أمام عيني قلبه. فخرج بذلك من قيدي الزمان والمكان. والدليل أن الملاك الذي حمل يوحنا من بين الملائكة السبعة حمله "بالروح إلى جبل عظيم شاهق" وأراه أورشليم الجديدة "نازلة من السماء من عند الله". كذلك يؤكد أن هيكلهم ليس مادياً فيقول: "وما رأيت هيكلاً- في المدينة، لأن الرب الإله القدير والحمل هما هيكلها"(12).

إن حالتي الرؤيَيْن هما حالتان روحيتان، وكذلك الهيكل والعرش عند سدرة المنتهى. وكما الرؤيا لدى يوحنا ومحمد كذلك مرحلة الكشف وظهور العنقاء حيث تسقط الحجب فتحول المعرفة عرفاناً.

هذا المقام الأخير وهذه الحال الأخيرة في سلم المقامات والأحوال بلغهما مولى العارفين جلال الدين البلخي الرومي، خارجاً من المكان إلى اللامكان ومن الزمان إلى اللازمان. يقول الرومي نفسه:

غربت از اغيار باشد نه ز يار بوستين بهر دى آيد نه بهار!

وترجمتها بالعربيّة: (الحياة) بين الأغيار غربة لا مع الخلّان، كما أنّ عباءة الصوف تناسب الشتاء لا الربيع.

فإذا عدنا إلى الرومي ألفيناه يصف تلك الحال التي تحرر فيها من جاذبية المكان وتعاقب آناء الزمان في أربعة أبيات فارسية المحتد نقلتها إلى عربية كريمة النجار هكذا:

من سدرة المنتهى جاوزتُ أفلاكا قرناً بقرن طويت الدهر ذيّاكا

سوط الرحيم رماني في ذرى فلك لا تجتليه عيون الإنس لولاكا

قد حال ناسوتنا لاهوت معرفة بوركت من عضد يمناك مرماكا

فالحال منّيَ أحوال مجنَّحة لا النطق يشرحها أو حدس مولاكا(13)

ترجمت هذه الحال العجيبة في لساني الخاص بأبيات من قصيدة طويلة في مولى الروم وشيخ الفرس وآي الرحمن القطب ـ حين قلت:

عرفان الله بك انكشفا ونقاب الحضرة قد نقبا

وبيان الله بك "مثنى" يتنزَّل شعراً ما عَرُبا:

"قرآن الفرس" و"أحمده" نور لضياء ما اجتُلبا(14)

إن البيان، بطبيعة الحال لعاجز عن وصف هذه الحال، لذلك قال الرومي فيها ينظر: إنها تفوق مضمون الكلام، فهي وراءه، وليس في مقدور القول وصف ما يعتمل فيها:

حال من اكنون برون ازكفتن است آنجه مى كويم نه أحوال من است! (15)

أي بالعربيّة:

حالتي الآن غدت فوق الكلام ترجمان الحال خبط في الظلام

فالفكر الصالح والقول الصالح والعمل الصالح تحول بالمجاهدة وصقل مرآة القلب انعكاساً في المرآة للسرّ الأعظم. تلك هي مسيرة الإنسان الكامل أو الساعي باستمرار إلى الكمال، بنعمة ربه، لا يؤتاها إلا من سعى إليها، إذ طريق الكمال ذات اتجاهين: صعود وهبوط، معراج وتنزيل.

إن الـذي أوتي النفـاذ إلى أقطـار الأرض والسـماوات –بسـلطان- إلى مـا وراء سدرة المنتهى، متجاوزاً الحـدود المرسومـة للملائكـة، يعاين ويسـمع ويتنزل في فؤاده مـا لم تره عيـن ولـم تسـمع بـه أذن ولـم يخطر ببـال بشـر! هي الحـواس الباطنـة تسـتبدل بالحواس الظـاهرة، فينفـذ صاحبهـا من حيّز المكـان ويخرج من دورة الزمـان. ألم يقل نبي الإسلام: "زُويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها"؟ وقـد صـاغ هذه المفاهيم العقلانية وما بعد العقلانية المتجلية في الفؤاد جلال الدين بإيضـاح، خلاصته بالعربية:

"إذا رُفع القيد عن إحدى الحواس تبدلت وظائف الحواس الأخرى مجتمعة. فعندما تجوز الأذن حـد النفـاذ تصـبح عينـاً. ما أكثر الكلام الـذي أُلقي في قلب موسـى فأدى إلى اختلاط الرؤيـة بالكلام!"(16) . فالحـال الناشـئة عـن الحـواس الباطنـة لا- تتقيـد بمعطيي الزمـان والمكان.

قال ابن الفارض:

تحقَّقت أنـّا في الحقيقة واحــد وأثبت صحو الجمع محو التشتت،

فكلي لسان ناظـر، مسمـع، يــد لنطق، وإدراك، وسمـع، وبطشـةِ،

فعينيَ ن-اجت، واللسـان مشاهــد وينطق مني السمع، واليد أصغـت(17)

إن حالـة "الخلـط مـا بين الرؤيـة والكلام" و"اختراق مـا بين الأزل إلى الأبـد" هي حال تتجـاوز أحوال الحياة المحسوسـة والماديـة، أي أنـها حال ما وراء الأحوال، يمكن تسميتها بلغة الفلسفة "التجرد" وبلغة العرفان "الاستغراق" وما أشبه.

عنـد هـذا الحـد أتسـاءل: هـل الإنسـان حـواس وإدراك حسـي وعقل مجرد وحسب؟ أليس للقلب، كمـا يقول العـارفون وأصـحاب القلوب، أو لقوة وطاقـة أخرى في الإنسان دور في مساعـدته على تجـاوز وتيرة حيـاته العاديـة إلى أحوال لا- يجـد لها تفسيـراً أحياناً بالمنطق المعهود؟

أليس يقوم فينـا –في مقابل العقل المادي الـذي يحاول اختراق مـدارات الكواكب بمركباته الفضائيـة التي ينبغي لها آلاف السـنين الضوئيـة لتبلغ بعض تلك الكواكب- مَدٌّ روحاني لا تقيده الحواس ولا المادة، ولا يصدمه مكان، ولا يحده زمان؟ ألسنا نشعر بذلك في أعماقنا، فتحضرنـا أحوال غريبة أو نستحضرها أحياناً؟

قال صاحب الفتوحات المكية:

خ ُص ِص ْتُ بعلم لم يُخ َصَّ بمثلــه سـواي مـن الرحمـن والعرش والكرسي!

وفي الحـديث النبوي: "إن لله عبـاداً ليسوا بأنبياء ولا شـهداء، يغبطهم النبيون والشهداء، لقربهم ومكانهم من الله"(18).

إن هذا القرب من الله لا- يتحقق إلا- بالإيمان الراسخ، فهو، وحده، يتحدّى سنّة الأشياء وسلسلة الأسباب والنتائج. أليس هذا معنى قول السيد المسيح في إنجيل متى: "لو كان لكم من الإيمان قدر حبة الخردل لقلتم لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هنالك، فينتقل ولما استحال عليكم شيء"(19).

وهذا الإيمان الراسخ الذي يتجاوز الإقرار بالكلام هو أعلى درجات القدرة، والفرق عظيم بين التصديق والإيمان كما جاء في القرآن الكريم: (قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم)(20).

فإذا عدنا إلى الإنسان في بناء كيانه العادي أفادنا العلم أنه لم يطور، بعد، جميع قدراته، ولا- هو توصل إلى استعمالها كلها، فهو لا يستخدم سوى قسم من خلايا دماغه، وهو نذر يسير. فكيف نتصور وضعه، بعد تطور طاقاته؟ أليس يمكن أن يغدو، يوماً، قادراً على ما لا- يستطيع إليه سبيلاً- الآن؟ أليست البشرية تستطيع، اليوم، ما لم تستطعه في الماضي، عبر دهور مديدة؟

لو بعث فينا من الماضي من يعاين، في أيامنا، ما صار، بالنسبة إلى حياتنا اليومية، عادياً مبتذلاً، مثل الهاتف والناسوخ والهاتف الخلوي والبريد الالكتروني وعجائب الحاسوب - الكومبيوتر والسيارات والطائرات وأجهزة التحكم من بعيد والمركبات الفضائية وسائر مبتكرات الإنسان... - لأعتبر كل هذا من المعجزات!

فلم لا- نتبين في قدرات أشخاص تفوّقوا روحياً - بتحررهم من معظم ما هو مادّيّ، اصطلاحاً، أي من علائق الحياة التي تعطل الذهن وطيران الروح وتصفية النفس، قبل ذلك، بالرياضات الروحية المستمرة وتحويل أعمالهم اليومية إلى أعمال منفوحة بروح العبادة والنزعة الإنسانية - وصفت نفوسهم حتى شفَّت عما لا يستطيع معاينته إلا أصحاب القلوب أو أهل القلوب - إمكانات وكشوفاً روحية لا- تتيسّر لسواهم من الملايين الذين تسيّرهم معيشتهم اليومية غير متشوفين إلى أبعد من ذلك؟

لقد عاد السيد المسيح في تعاليمه مراراً وتكراراً إلى التشديد على ضرورة التحلي بصفات الطفولة في الإنسان، ومعنى ذلك العودة إلى الصفاء الأول في الإنسان قبل أن تستغرقه الحياة الدنيا. فعندما سأله تلاميذه: "من الأعظم في ملكوت السماوات؟"،

"فدعا يسوع صبياً، وأقامه في وسطهم، وقال: الحق أقول لكم: لن تدخلوا ملكوت السماوات ما لم تعودوا وتصيروا كالصبية...

خير لمن أزَلَّ أحدَ هؤلاء الصغار، المؤمنين بي، أن يطوَّق عنقه برحى حمار، ويزجّ به في لجّ البحر.

"إن تُزلّك يدك أو رجلك، فاقطعها، واقذف بها عنك! لَتدخولك الحياة، وأنت أقطع أو أعرج، خير لك من أن تُلقى في النار الأبدية ولك يداك أو رجلان"(21).

إنّ السيد المسيح في هذه الآيات وفي سواها يشدد على ضرورة عودة الإنسان الذي أزلته الحياة، أي أسقطته في الزلّات، إلى صفاء الطفولة وطهارتها، قلباً نقياً، كي تنعكس فيه، بعد صقله، الأنوار الشعشعانية، كما يقول الرومي والعطار وابن عربي وسواهم من بعده. وقد استلهم هؤلاء وسواهم من العارفين الكبار تعاليم التوراة والإنجيل والقرآن ولم يفرّقوا بين الأديان، قال ابن عربي:

وقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ فمرعىً لغزلانٍ وديراً لرهبان

ومسجدَ أوثانٍ وكعبة طائفٍ وألواحَ توراةٍ ومصحفَ قرآن

أدين بدين الحبّ أنّى توجهت ركائبُه فالحب ديني وإيماني(22)

ثم جاء سعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي وروزبهان بقلي الشيرازي وقافلة من العارفين، فأعلوا من شأن المسيح واقتبسوا من أنواره كما من شأن نبيهم وفيوضه، وهكذا فعل من سبقهم في تاريخ الأدب الفارسي. قال حافظ الشيرازي:

همه جا خانهء عشق است جه مسجدجه كنشت(23)

أي بشعر عربيّ من ترجمتي:

كلّ ناحٍ صار للحبِّ مزارا مسجد المسلم أو دير النصارى(24)

وما أكثر ما استلهم سواه المسيح وأنفاسه المحيية سيراً على سنّة سعدي وحافظ. قال الشيخ سعدي في حبيبة خاطبها بصيغة المذكر لأنه كان يصف قدّها الفارع ما ترجمته بالعربية:

قَدُّ سَروٍ وجهة الروضِ جرى خَطوهُ محضُ انسيابٍ، ما جرى!

مسَّ سطحَ الأرضِ رفقاً خالهُ ميِّت القبر مسيحاً فجرى!

هذه الحياة الروحية بمعانيها الإنسانية غير المنسلخة عن معاناة الناس بل المشاركة فيها بقوة هي التي جذبتني إلى بلاد ألف ليلة وليلة، إلى أدب الفارسية الذي يعلي شأن الإنسان ويجعل منه محور الكون، بعد محطات من السير والسلوك كانت بالنسبة إليّ لو أخذت بظاهرها لا بباطنها لحسبتها من صنع القدر، منذ طفولتي، مروراً بصباي وشبابي، عبوراً -بعد الزاد الكبير- إلى الكهولة والشيخوخة وهي التي عرجت بي على جناحي يوحّنا ومحمّد إلى وكر العنقاء في جبل القاف حيث تلألأت في مرآته اللامتناهية خيالات صورة العنقاء!

****

الهوامش:

*) كاتب وأكاديمي من لبنان.

(1) خداشناسي زرتشتي، نوشته ى مانك جى نوشيروان جى دهالا، مؤسسة انتشاراتى فرهنكى فروهر، تهران، 1377ه.ش، ص16 - 17.

(2) ديوان حافظ الشيرازي، نشرروزكار، تهران،،1381 ص،166 غزل 80 (سابقه لطف ازل).

(*) الخلّ أو الخليل هو، في نظري، المعادل الأقرب إلى مفهوم كلمة "يار" الفارسية التي تعني أموراً كثيرة بينها الخلّ والحبيب والمشارك في الإدراك الحدْسي. وهو، مثلاً، في مفهوم جلال الدين الرومي، نقيض "الغير" الغريب عن عالمك الروحاني في قوله: "غربت از اغيار باشد نه زيار"؛ وكذلك في مفهوم حافظ الشيرازي الذي كنى بلفظ "يار" عن الحلّاج الذي كان جرمه أن باح بالسرّ المكنون للحقيقة القصوى.

(3) ديوان المتنبي، ضبطه وعلّق حواشيه المعلّم بطرس البستاني، بيروت، 1860م1276هـ، ص7-8.

(4) مجاميع الصوفية.

(5) مجاميع الأحاديث.

(6) ديوان المتنبي، ص350.

(7) ديوان حافظ شيرازي، باهتمام محمد قزويني وقاسم غني، كتابخانه زوار، تهران، د.ت. ص،124 غزل 184.

(8) فكتور الكك، مختارات من الشعر الفارسي، منقولة إلى العربية، ملتقى سعدي الشيرازي، طهران، 2000م، ص110-111.

(9) سورة الإسراء، 17/1.

(10) أبو سعيد بن أبي الخير، مؤتمر طهران، 2002.

(11) رؤيا يوحنا، 11 ـ3 الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، ط1، بيروت،،1993 ص384 - 385.

(12) رؤيا يوحنا، 1/10 - 22 متفرقاً.

(13) قرآن، سورة البقرة، 2/34.

(14) قرآن، سورة النساء، 4/171.

(15) مثنوي معنوي، دفتر دوم.

(16) فكتور الكك، "جذبة مولانا"، فصلية "الدراسات الأدبية"، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 2003م، ص218. "مثنى" إشارة إلى المثنوي، منظومته العرفانية

الرائعة التي عرفت بقرآن الفَرس أو العجم. فهذا المستوحى من القرآن بمنزلة نور القمر من ضياء الشمس، في نظرنا.

(17) مثنوي.

(18) شرح مثنوي، از دكتر سيّد جعفر شهيدي، ج،6 ص614.

(19) ديوان ابن الفارض.

(20) ثلاثة مصنفات للحكيم الترمذي، منشورات فرانتس شتاينر، شتوتكارت،،1992 ص28 و 84.

(21) إنجيل متى، طبعة جامعة الروح القدس، ص87.

(22) الحجرات 14/49.

(23) متى 17/18، 1 - 8.

(24) ترجمان الأشواق، قافية ن.

(25) ديوان حافظ.

(26) مختارات من الشعر الفارسيّ، فكتور الكك. الكويت، مؤسسة البابطين، 2001.